(17)
الشمس الحارقة

لأول مرة يشتهي أن يرى السماء مغطاة بالغيوم . خمسون سنة قضاها وهو لا يدري ان السماء الزرقاء تحمل له كل هذه المناجاة .. وقد تؤدي الى هلاكه .
وأحس الرجل بوطأة الشمس فأخرج منديله وعقد رقبته
و منذ قليل كان قد تخلص من سترته فرماها أرضا وتابع سيره
واحس عندئذ بالثقل ينزاح عن جانب من ظهره. وتطلع حوله فاذا كل شيء يشير الى نهايته المحتومة . ابدا، لم يخطر بباله أن الصحراء دنيا يمتزج فيها السحر، سحر الحياة الفسيحة اللانهائية، وقسوتها معا .
وفتش الرجل عن وسيلة تنقذه من مصيره فلم يوفق ، وراحت عيناه تبحثان عن معالم قرية او اي شيء يدل على وجود بشر، على بعد معين منه ، ولكنهما ارتدتها اليه خائبتين وقد مات الأمل فيهما وانطفأ كل رجاء .
سار يمينا ويسارا و سار الى الأمام والى الوراء ، ولكن دون جدوى .. وخسر ساعتين بلا مقابل .
سيارته السوداء الصغيرة التي خلفها في جهة ما، كانت ما تزال تبدو لعينيه . أن ظهرها يتوهج تحت أشعة الشمس . الشمس محرقة ، محرقة . انه يحس بها وكأنها جالسة تسريح فوق رأسه ..
وبدات انفاس الرجل تتلاحق كقطيع من الحيوانات اصابها الزعر والتعب . وراح يلهث بصوت مسموع .اين؟ أين تقع دنيا الناس الذين ينعمون بالماء والظلال الوارفة ؟
دارت عيناه في كل الجهات وبحثتا عن معالم كائنات مثله .

ولكن ، لا شيء ينم عن وجود مثل هذه الدنيا على سطح الأرض .
وتطلع الرجل الى السماء فاذا هي شديدة الزرقة . الشمس
لا تستريح فوق رقبته ، ولكن الوقت ما زال مبكرا حتى تنحرف .
الساعة الثانية تماما ، والأمل ضعيف بنجاته من قسوة هذا العالم الرحب الذي ضل فيه.
وقواه بدات تخور . سيارته التي تعطلت عن السير ما تزال تلوح لعينية من بعيد كصرصار اسود لامع يدب على وجه الارض بحذر شديد .
هل يعود الى سيارته ؟
وبدأت شجاعة الرجل تخونه . كانت شجاعته تتسرب من عينيه وانفه وقدميه . يداه فقط كانتا تحتفظان بقوتهما وسوف يخلع بهما قميصه . قميصه ثقيل جدا . ورأسه ثقيلة ايضا . ونزع الرجل قميصه بعصبية عشوائية .. ثم تابع سيره وهو يفكر : لماذا لا ينزع راسه ويرمي بكل اثقاله جانبا .. دفعة واحدة ؟!
ضجت في حلقه ضحكة، ولكنه خنقها بشدة وعلى الفور.
وعندما تصور نفسه بعد ساعة .. ساعتين .. سنة .. اخذت الضجة في حلقه بالخفوت، وتحولت تدريجيا الى نغم جنائزي : كهذه الدودة الصفراء التي تلوت تحت بصره وهي تتوارى خلف كومة من تراب .. معبره . ستنبت في جسده مئات كهذه الدودة . سيتحول الى دود يدب على ارض الصحراء . أليس مؤسفا للغاية أن يلقى مصيره المقرف
على مرأى من سمائه ؟
من سمائه الزرقاء الصافية التي طالما أحبها .. ونشد رؤيتها؟
وتجهم وجهه من شدة الألم ...
انه لا يحب الوجوه المتجهمة التي لا تثق بالمستقبل وتخفي وراء ملامحها القلق واليأس، ولكنه الان فقط يشعر بانه كان يظلم تلك

الوجوه .. فانقلبت كراهيته لها حبا جارفا، وتمنى ان تحيط به من كل جانب . انه الان واحدة من تلك المأسي التي تتبدى وجوها متجهمة ولا تعرف غير القلق واليأس والموت .
وراح الرجل يلهث كقطار نفد وقوده وهو يقطع طريقا جبلية وأحس بانه ضعيف .. ضعيف جدا . لكم خيل اليه انه اقوى من القوة نفسها .. هناك ، في المدينة ، حيث يمارس سلطته على الاخرين عندئذ، تراءت لعينيه صور شتى من مدينته ، وشاهد افواه الناس من حوله تتسع لتلعنه في صوت واحد :
يأيها المرابي القذر
انك ستموت في ذات يوم . ستموت ككلب ضال، قبل الان لم يفكر بموت الكلاب الضالة .. فما أشقاها اذن عندما تموت!
ورفع الرجل عينيه الى السماء فوجدها لامعة كعين كبيرة غالبة الشمس لم تعد محرقة ولكن قواه تبددت تماما، يداه ايضا لم تقدر على الحركة. كل شيء حوله كان يشده الى الأرض .. فتهالك على الرمال الصفراء الأزلية واسند رأسه الى ساعده ولم تعد تترامى لعينيه صور مدينته .. ولا الأفواه المليئة باللعنات .
حتى الصرصار الأسود اللامع كان قد اختفى في مكان ما .
ونام بضع ساعات وحشرة صغيرة دبت فوق جفنه وايقظته، لم يفتح الرجل عينيه .
تمنى أن يكون في حلم ! ولكنه عندما تلمس بطريقة لا شعورية قواه وجدها كاملة ، لم يعد الأمر على جانب كبير من الخطورة . المهم عنده هو أن تحمله قدماه الى ابعد مسافة ممكنة ، وحتي يعثر على دنيا الناس الذين ينعمون بالماء والظلال الوارفة .
ولن نخذله قدماه عندئذ هب واقفا . فتح عينيه وعب بهما دنياه الجديدة .
ياللهول والحيرة . الى اين يمضي؟

الطريق لم تكن واضحة . أنفاس النجوم الضئيلة لا تقوى على اختراق حجب الظلام الكثيفة، ترى هل تغطى الغيوم وجه السماء بعد فوات الأوان؟
أحس الرجل بيد قوية تقبض على قلبه، فجلس ثانية على الرمال وحاول النوم : غدا ستعود الى السماء زرقتها من جديد .. وستكون الشمس محرقة، محرقة ..
وتشابكت امام عينيه ألوف الديدان الدقيقة الصفراء .. تدب على وجه الأرض...